Coptology

# حوارات في تدبير المبتدئين

# (٦)

# محبة يسوع الخاصة للخطاة

دكتور

جورج حبيب بباوي

٢٠١٦

www.coptology.org

# محبة يسوع الخاصة للخطاة

كان أبي يحذِّرني دائماً من الوثنية، وكان أهم تحذير هو تصوُّر الله كما نتصور نحن أنفسنا، أي أن نتصوره إنساناً مثلنا يغضب ويثور ويحطم مثلما نفعل نحن عندما ننفعل، بل كان أهم ما قيل إن بقايا شجرة معرفة الخير والشر فينا هو أننا نحن أنفسنا صِرنا شريعة الخير والشر، وأننا صرنا مقياس كل شيء حتى بعد أن قبلنا الإيمان، إذا أخضعنا الإيمان وبشارة الإنجيل لمقاييس وأحكام العقل.

وقال أيضاً إن ترياق الوثنية التي ورثناها من الأجيال السابقة هو تجسد الابن ربنا يسوع. للتاريخ فقط، كان د. شفيق أسعد إبراهيم قد عاد من انجلترا ومعه عدة كتب، وقدَّم لي ترجمة انجليزية جيدة لكتاب "تجسد الكلمة" للقديس أثناسيوس، وكان لدينا ترجمة عربية لا بأس بها للقمص مرقس داود. ودار حوارٌ حول الكتاب مع د. شفيق الذي كان يسكن في منازل الطلبة الملاصقة لكنيسة مار مينا حيث توحَّد القمص مينا المتوحد — دام الحوار فترة طويلة، وكان القمص مينا المتوحد يسألني دائماً عما تعلمته من "تجسد الكلمة". ومع مرور الأيام بدأت أفهم أن معنى وغاية التجسد هو استعلان الله في اللحم والدم، وهو ذلك الاستعلان المُشرق دائماً كل يوم في سر الإفخارستيا في كل قداس يومي، وهو ما كان يفوق إدراكي، إذ كانت الصلوات تُصلَّى كما لو كانت جديدة كل يوم؛ لأن المُصلِّي وخادم السرائر كان قد امتلأ من الروح القدس والحضور الإلهي الدائم في حياته.

مِن هذه النقطة بالذات سألت عن الله الذي يملأ السموات والأرض، وهو ما نردده في القداس: "قدوس قدوس ... السماء والأرض مملوءتان من مجدك الأقدس"، وعن انتشار الشر، وكيف -بحرية الإرادة- ندير ظهورنا إلى الله نفسه لكي نفعل ما يرضي الأهواء والشرور الكامنة فينا، ومع ذلك لا يمنعنا الله، ولا ينتقم منَّا، بل يترك لنا الفُرَص لكي نعود إليه؟

الله لا يفرض وجوده أو حضوره، هو يخفي مجده لكي يترك لنا الحرية والقرار الذي نريده. استعلان الله في العهد القديم كان له ثلاثة مظاهر:

- الاستعلان الشخصي للبطاركة.
- الوحي للأنبياء.
- التدخُّل في بعض أحداث التاريخ.

## المصالحة مع الخليقة:

وطبعاً سمعت عن سدوم وعامورة والطوفان. هذه أحداث فريدة ترك الله الإنسان فيها أمام قوة الطبيعة؛ لأن الإنسان كسر العهد مع الكون، إذ يقول النبي: "تعدُّوا العهد كآدم" (هوشع ٦: ٧)، وعهد الله مع "النهار والليل" (أرميا ٣٣: ٢٠)، فهو العهد الأبدي (أش ٢٤: ٥). واغتصاب الخليقة، ثم عبادتها هو انفلاتٌ أدَّى إلى الكوارث التي نسمع عنها، ليس لأن الله هو سببها، بل تعدِّي الإنسان لم يُلزم الكون بأن يحفظ الحدود، والخليقة التي تصرخ إلى الخالق يمنحها الله الحرية. ولذلك، إذا كان الله قد منع المياه من أن تُغرق اليابسة (أش ٥٤: ٩) ثورة الخليقة على كسر العهد الأبدي الذي تجاسر عليه الإنسان، تجد عكسها في حياة القديسين الذي عاشوا مع حيوانات مفترسة مثل برسوم العريان الذي كان في صحبة ثعبان، والأنبا بولا الذي كان الغراب يُحضِر له الطعام مع أن الغراب "خطَّاف"، كل هذه استعلانات نعمة المصالحة مع الكون. ولذلك، عندما نرتِّل الهوسات (التسبحة السنوية)، نحن ندخل المصالحة مع الكون بالتسبيح، وإيماناً مِنَّا بأن المخلص ربنا يسوع المسيح صالَحَ الكلَّ لله الآب بأقنومه، وحقق الصُّلحَ بدم صليبه مع كل ما على الأرض وكل ما في السموات (كولوسي ١: ١٩-٢٠)، واختبر الآباء علامة الصليب في هدم قوى الشر والمصالحة مع الثالوث القدوس.

## خوف الوثنية القابع في الوجدان:

التحرر من السلوك والعادات والاعتقاد الخاطئ يستغرق وقتاً، وهو الوقت اللازم الذي يطرد فيه الإيمانُ كلَّ ما هو شرير وخاطئ وبلا هدف.

الشعور بالذنب يلازمنا ويفارقنا عندما ينمو الإيمان، وتتغير الثوابت الخاطئة التي تسللت إلينا عبر الطفولة والمراهقة، ومن المجتمع، بل ومن الكنيسة.

بدايةُ الإفراز -كما كان يقول أبي الروحي- هو أن يطهِّر المسيح بحياته وتعليمه، كل ما استقر من "مفاهيم خاطئة" زَرَعَتها الخطية، وأخذت قوتها من الخوف من العقاب الذي يلازم الإنسان بسبب الخوف من الموت.

كلما عاد إليك الخوف من العقاب، كلما تعلَّمت أن إيمانك انحرف عن الهدف، وهو "الشركة". وهكذا يجب أن تحيا الحياة المسيحية الحقيقية التي لا تعرف الخوف، أي التي ليست مؤسَّسة على الخوف، بل على الإيمان والمحبة.

نحن نحمل في قلوبنا ذلك الخوف، ونظن أن الرب يسوع مثل البشر الذين نعرفهم، ولكن هذه ملاحظات أتركها معك لكي تفكر فيها:

- هل طرد الربُّ يسوع خاطئاً واحداً؟ وأعظم مثال هو اللص اليمين الذي صرخ طالباً أن يذكره الرب.

- ماذا فعل المرأة التي أُمسكت في ذات الفعل؟ كان يملك أن يرجمها، فهو بلا خطية، ولكنه؛ لأنه بلا خطية، لم يرجمها، لأن الخطية تخلق فينا الشعور بالذنب، وهو ما يجعلنا نفرح بالعقوبة، عقوبتنا نحن وعقوبة الذين يخطئون، نسمعها في لغتنا العامية، يستاهل اللي يجرى له.

– وكان يأكل ويشرب مع الزناة والعشارين، ولم ينتظر أن يدعوه زكا، بل دخل إلى بيته وطلب الرب الضيافة.

وما أكثر الذين كان لهم قبول شخصي عند الرب، ولذلك وُصِفَ الرب بأنه "محبٌ للعشارين والخطاة" (لوقا ٧: ٣٤).

## هل تعرف ما هي المحبة الخاصة للخطاة؟

أجبت بالنفي؛ لأن السؤال نفسه كان جديداً، وكان يمثل تحدِّياً لم أحاول أن أتصدى له من قبل، كما أن انتظار إجابة أبي كانت عندي أهم من أفكاري.

قال: إن الشريعة الموسوية كانت تحكم على الخطايا، وكانت الخطايا نوعين:

**الأول**: ما يهدد العلاقات الاجتماعية مثل العبادة الوثنية والسحر والعرافة.

**الثاني**: الخطايا الشخصية التي يرتكبها الشخص مثل الزنى والقتل ... الخ.

ولم يكن في الشريعة أي مجال للغفران أو التجديد، بل كمال العقاب. وكانت نظرة الجماعة هي احتقار الخاطئ وفرزه، وهو ما جعل الخطاة يخافون من الجماعة، ومن العقاب. وجاء يسوع بتعليمٍ احتوى على جانبين:

– **الأول**: هو إعلان أبوة الله الآب.

– **الثاني**: هو الكشف عن شخصه بمعجزات الشفاء، حتى لمن هم ليسوا من أصل يهودي، مثل عبد قائد المئة – ابنة المرأة الكنعانية، بل جاءت بشارة السامرة عن طريق السامرية. وكان هذا مستهجناً حسبما ذكر الإنجيلي (لوقا ٧: ٣٤). هذا ما نعرفه عن خدمة الرب في مجتمع يفرز الخطاة ويحاكمهم. ولكن ماذا فعل يسوع؟ أظهر شفقةً خاصةً ومحبةً خاصةً. فما هي هذه الخصوصية؟ ساد صمتٌ مرَّ كأنه دهرٌ، وأنا

أفكِّر في ما هي خصوصية محبة الرب للخطاة؟ وقطع الصمتَ صوتُ المعلم وهو يقول: "الخاطئ هو شخص مستعد لأن يضحي حتى بحياته في سبيل إتمام شهوته. هو شجاع لدرجة التهوُّر، إذ تقوده الشهوة إلى التعدِّي على الوصية بدون أي تردد. فهو لا يعرف التردد إذا أراد أن يخطئ. هذا من جهة الخاطئ، أمَّا من جهة الرب نفسه، فهو يرى أن تحوُّل الشجاعة إلى بذل، وأن قبول التضحية حتى بالعلاقات الإنسانية في المجتمع، تتحول إلى تلمذة واتِّباع الرب، بل تنمو بمحبة حقيقية للذات وللقريب، تنطلق من محبة الله الآب التي أصبح الخاطئ يعرفها لأنه مدعوٌ إلى الملكوت، وإلى تغيير سير اتجاه حياته، فإن هؤلاء الخطاة يصبحون شعلة محبة.

لكن هناك أسباباً أخرى للخصوصية رآها الرب، ولا نراها نحن عندما نغلق أبواب الحواس كلها بما فيها الحدس، ولا نرى إلا أنفسنا فقط. ومن ضمن هذه الأسباب هو رؤية الرب –لمحبته– لمن هو في أشد الحاجة إليه. هو الحياة التي تحارب الموت، ولا ترضى به لأنه هو خالق الحياة. هو المحبة التي لا تقبل الكراهية، بل ترجو أن تتغير الكراهية، ومعه تصبح الكراهية قوة محبة فعالة. هو النور الذي يريد أن يبدد الظلمة، وهو الجود والصلاح الذي لا يعرف البُخل. وعندما تجتمع كل هذه القوى، فإنك ترى أن للرب حياةً تختلف عن حياة الخطاة، ولذلك لا يضن الرب ولا يتراجع، إنه الطبيب الذي يفتِّش عن المرضى، والراعي الذي يطلب الضال، والصالح الذي يوزِّع بسخاء. فالظلام يستدعي إشراق النور، والموت يُعالَج بالحياة، وكل مَن هو مستعبد، ينال الحرية.

إنها خصوصية السيد محب البشر. وإذا كنت تريد أن تعرف، عليك أن تدرس الأمثال التي ضربها الرب يسوع، ليس للبحث عن الجانب الرمزي، بل عن العلاقة التي يذكرها المَثَل. علاقة الأب بالابن الضال. علاقة المرأة بالدرهم المفقود. بدون المحبة لا يمكن فهم العلاقة، مهما كان التفسير صحيحاً. كيف تفهم صلب الرب بين لصين؟ واحدٌ آمن ودخل الفردوس، والثاني هلك بجهله.

لم يَمُت السيد وحده، بل من وراء الزمان، صُلِبَ ومعه لصٌّ سرق الفردوس -كما قال إفرام السرياني- فما هو المستعلَن في خصوصية محبة الرب للخطاة؟

- أولاً: لم يفرض الربُّ شروطاً مسبقةً، ولا حتى شروطاً لاحقة. قال للمرأة التي أُمسكت في ذات الفعل: "ولا أنا أيضاً أحكم عليكِ"، مع أنه كان يملك الحكم؛ لأنه "بلا خطية". وعندما يسأل: "يا امرأة أين الذين حكموا عليكِ؟"، فقد بَدَّدَ جميع القضاة.

وليس هناك شرطٌ مُسبَق؛ لأن "المحبة لا تطلب ما لنفسها". كذلك ليس هناك شرطٌ لاحق، بل دعوة لحمل الصليب؛ لأن الرب قال: "إن أراد أحدٌ"، ولم يقل: "يجب على مَن يريد أن يكون لي تلميذاً". لا شروط. ومحبة بلا سبب هي ختم المحبة الإلهية.

محبتنا نحن لأسباب، تقوم الأسباب وتسقط الأسباب. صُلب الربُّ عنا، ونحن لا نعرفه ولم نؤمن به عندما صُلب وقام.

- ثانياً: أنها ليست علاقة عاطفية حسية فقط، بل هي علاقة كيانية. ماذا فعلتْ بنا الخطية؟ تجعلنا نُحب مِن على بُعد، ولا نعطِ أنفسنا إلا إذا كانت النعمة تعمل فينا، أمَّا الرب فهو يعطي من كيانه، أعطى ذاته في العلية، وسكب روحه في العنصرة، ويقدِّم ذاته على مذابحنا في كل قداس، يدعو من يريد أن يأتي إليه، وهو هنا لا يقدِّم مشاعر فقط، بل "جسدي ودمي"، أي أنا "من يأكلني يحيا بي" (يوحنا ٦: ٥٧). يوحِّدنا الرب بكيانه رغم ما فينا من نقصٍ وجهل، بل ومقاومة -أحياناً- لعمله الإلهي، ولكنه لا يكُّف عن المثابرة وملاحقتنا، هذا غير معروف بالمرة على مستوى البشر.

يقول الرب يسوع لكل نفس: "أُحبُكِ حتى وإن كان في قلبكِ بغضة"، فهو يسعى دائماً لكي يحل فينا، لا لكي يبقى معنا في معية صداقة، بل لكي يكون فينا، فهو "يحل بالإيمان في قلوبنا" (أفسس ٣: ١٧).

– ثالثاً: وماذا يمكن أن نضيف إلى ذلك؟ هي وحدة كيانية، رَبَطَ الربُّ فيها مصيره أي حياته ووجوده وعزته ومجده وأُلوهيته بنا نحن الضعفاء والفقـــراء. عنـــدما قرأت كلمات الرب في (رؤ ٣: ٢١) "من يغلب سوف أعطيه أن يجلس معـــي علـــى عرشي كما غلبت أنا وجلست على عرش أبي"، فقد غلبني البكاء لعدة أيام، حتى أنني شعرتُ بضعفٍ جسداني لم أشعر به من قبل، وهو بكاءٌ من شدة تأثري بصلاح الرب يسوع. الغلبة هنا هي موتنا نحن على الصليب الذي اخترناه للتلمذة، وهو إيماننـــا لأن الإيمان اختيار والاختيار قرارُ المحبة. هكذا تعطيني يا رب أن أجلس معك على عرشك، عطية وليست قدرة. وعندما قرأت عبـــارة أوغســـطينوس I am you لم أرغـــب في ترجمتها. "هو وأنا كيان واحد"، أو "أخذ الذي لنا وأعطانا الذي له".

مضى بعض الوقت وكنتُ في أشد الحاجة إلى تطهير فكري مما علق بـــه مـــن أفكار مسبقة "ومثاليات" عن المحبة، ليس لها علاقة باستعلان محبة الله الآب في ابنه يسوع المسيح. وكانت فرصةً لمراجعة النفس دامت بعض الوقت، وجاء عيد العنصرة، وطقس السجدة، وشبعت من الصلوات، ولم أُفكِّر في متابعة الحوار، فقد أخذت ما يكفـــي في الوقت الحاضر، ولكن كان لقاءٌ غيرَ مُرَتَّبٍ. سألني أبي عن أحوالي، وعن نقـــاء قلـــبي، ونصحني بدراسة عظات أوغسطينوس على سفر المزامير، وقال إنه يشعر بـــأن الترجمـــة الإنجليزية التي نُشرت (١٨٨٨) مختصرة. بعدها بعدة سنوات ظَهَرَ أن حِسَّه القلبي كـــان صحيحاً، فقد نُشرت الترجمة كاملة في ٥ مجلدات. كان يرى أن أوغســـطينوس كتـــب الكثير عن المحبة الإلهية، وأننا نحتاج لدراسة كتابه عن "الثالوث"، فهو صـــاحب المقولـــة المشهورة: "الله محبة، لذلك هو ثالوث"، المحب والمحبوب والمحبة، مع ملاحظة أن المحبـــة ليست علاقة عاطفية، بل هي أقنوم الروح القدس. كان السير خارج الدير في البريـــة في المساء بالذات ممتعاً، وكان أبي يقول دائماً: إن صغر حجم الإنسان، واتســـاع دائـــرة الكون، هو درسٌ منظور عن عمل الله كخالق، لا يمكن رسم حدود لعمله الإلهي.

قال: بعد أن قام الرب من الأموات وكان التلاميذ مجتمعين بسبب خـــوفهم، وقف الرب وقال لهم: "سلامٌ لكم. ونفخ وأعطاهم نسمة حياة، أي الروح القـــدس"،

دون أن يسألوه، بل قبلَ مجيء المعزِّي في يوم العنصرة، عطيةً بلا سبب سوى الجـــود الإلهي. و لم يكن أحدٌ من التلاميذ هو الذي طلب العنصرة، بل وَعَدَ الربُّ بها وحَقَّـــقَ الوعد. هذه هي المحبة، تعطي بلا سبب، بل حتى بلا طلب، وبلا استعداد. من جانبنا، الاستعدادُ مطلوبٌ للقبول، لكنه ليس شرطاً، ولا سبباً، بل المحبة هي سبب العطيـــة. نفخةُ الروح القدس أعادت إلينا نسمة الحياة، فقد تم تجديد الطبيعـــة الإنســـانية؛ لأن الرب قام، وصار آدم الجديد "المانح الروحي للروح القدس". أمَّا في العنصـــرة، فهـــو انسكابٌ على الكنيسة، انسكابٌ تم بعد تجديد الكيان الإنساني في يسوع.

أعود وأكرر، إن خصوصية محبة المسيح لا يمكن شرحها، ولكن توجد ثلاثـــة حقائق لهذه المحبة:

**أولاً**: ثباتٌ إلهيٌّ عجيب، يواجه الضعف الإنساني والعجز بثباتٍ لا مثيل لـــه. نحن نتردد ونتراجع، أمَّا هو، فلا يتردد ولا يتراجع، بل ثابتٌ، ولذلك يقول الـــرب: "اثبتوا في محبتي" (يوحنا ١٥: ٤).

**ثانياً**: أبدية المحبة، فهو أحبنا قبل أن نحبه نحن -كما قال الإنجيلي- ليس لأننا كنا قديسين، بل اختارنا فيه الله الآب قبل تكوين العالم (راجع أفسس ١: ٣). أبديـــة المحبة الإلهية لا تتغير بزمانية محبة الإنسان، بل تعمل دائماً لرفع الحياة الأبدية إلى ذلـــك المستوى الإلهي.

**ثالثاً**: وهي محبة تُعبِّر عن حياة الأقنوم. وعندما قال الرسول: "الله محبة"، فالمحبة لم تُضَف كصفة مكتسبة، بل هي حياة الله نفسه، ولذلك قال: "كل مَن يحب قد وُلِدَ من الله". "وُلِدَ"؛ لأنه عَرِفَ أُبوة الله الآب الذي منحه بنوةً بدون استحقاق، وبـــدون أي استعداد. المنحة أو العطية تأتي، ثم هي نفسها التي ترتِّب الاستعداد فينا.

قال: لم نستوعب بعد ما جاء بتجسد الكلمة. أولاً الحلول المتبادَل بيننا وبين الرب يسوع. هو فينا؛ لأننا نحن فيه. المسيح فينا هو عطاءُ الآب السماوي لنا، ولذلك

قال الآب: "له اسمعوا"، فقد جاء ليس بعلاقة خارجية مثل علاقة الإنسان تحت العهد القديم، بل جاء بعلاقة شركة.

عندما نقول إن الإنسان خاطئ، فإن الخطية هي التي استدعت مجيء الله الكلمة. كم فرحت عندما قرأت في كتاب "تجسد الكلمة" إن سقوط الإنسان هو الذي استدعى صلاح الله وتجسده (راجع فصل ٤: ١). وتجسُّد الكلمة جعل الإنسان في يسوع المسيح حيًّا متَّحداً بالله الثالوث إلى الأبد. "المسيح فيكم رجاء المجد"، وأيضاً: "يحل المسيح بالإيمان في قلوبكم"، وأيضاً: "إن كان أحدٌ في المسيح، فهو خليقة جديدة". هذا هو حلول الحياة. نحن فيه؛ لأن كل عضو في جسد الرب، يأخذ حياته ووجوده من الرأس. وهو هنا حلولٌ أبدي، ولا يجب أن نخاف من الحلول، فهو رجاء الحياة الأبدية. إن خطايانا هي التي تستدعي حلوله فينا لكي يطهِّرنا ويجدِّدنا ويحوِّلنا إلى خليقةٍ جديدةٍ. والسُّكنى هي دلالة الشركة، ولا يوجد فرق حقيقي. أصبحت أخشى على الإيمان من الاجتهادات اللغوية التي لا تتمسك بالإيمان. البحث اللغوي جيد ومطلوب، ولكن المسيح رب الحياة ليس كتاباً. الإنجيل هو بشارة حياة، أي حياة يسوع، هو مجيء الله الكلمة، هذا هو معنى كلمة بشارة.

## ما هي محبة يسوع الخاصة التي يؤكِّدها تجسده؟

**أولاً**: الاتحاد الدائم بين اللاهوت والناسوت. نحن ندافع عن هذا، وقد دافعنا عنه في مجمع أفسس ٤٣١ من أجل فساد التعليم النسطوري. والتمسُّك بالجانب الدفاعي مطلوب. ولكن، ومع الضرورة القصوى للجانب الدفاعي، يجب أن ننتبه إلى أن يسوع ليس فكرةً ندافع عنها، يسوع هو شخص، هو أقنوم، هو رب الحياة، هو إلهٌ متجسد. هو الإله الذي فيه حياتنا ووجودنا الإنساني. جاء إلينا لكي يبقى فينا وبيننا.

لقد تحدثنا كثيراً عن "بيننا"، و لم نتكلم عن "فينا" إلا القليل جداً. حقاً هو سرٌّ عجيب فائق لا ندركه، ولكن تجاهُل هذا الحلول الإلهي لأقنوم الله الكلمة بسبب

اتحاده بنا في تجسده، هو أحد أسباب الضَعف الروحي الذي نحياه. مثل إنسان عطشان لا يعرف أن الماء قريبٌ منه، بل قريبٌ جداً.

سألت: كيف نعود إلى هذا السر؟

قال: أولاً بالإيمان بالخبر السار، وهو إيمان يفتح لنا **ثلاث حقائق** خاصة بالرب نفسه:

**أول هذه الحقائق** هي أن الرب جاء إلينا ونحن خطاة، ومات عنا دون أن ندري أو نفهم. هذه حركة محبة لا يمكن أن تتوقف تجاهنا. هو آتٍ إلينا دائماً كراعٍ صالح، مياه الحياة، النور الذي يضيء في الظلمة، خبز الحياة من عند الآب، طبيبٌ جاء من أجل المرضى، كل هذه هي بشارة الحياة.

**والحقيقة الثانية** هي تقديم الرب لذاته. فقد قدَّم ذاته بالخدمة، ثم قدَّم ذاته ذبيحةً، ثم طعاماً حياً يعطي الحياة، ثم قيامةً وحياةً أبديةً، ثم وعداً بما لا نملك، وهو مجيء المعزِّي الروح القدس، هذه هي محبة خاصة. حاول أن تفكر في الذي جاء لأجلك، وفي الذي لأجلك قدَّم ذاته في العلية، ثم على الصليب. ولاحظ: أخذ الصليبُ قوته من الاتحاد الأقنومي؛ لأن الذي صُلب هو ربُّ المجد. وصار الصُّلبُ والقيامة هو العمل الواحد الذي أباد فيه الرب الموت لكي يهب لنا الحياة الأبدية. فعل يسوع ربنا كل هذه الأمور لأجلنا نحن؛ لكي نحيا. عندما يقول: "من يأكلني يحيا بي"، فهل يمكن لأي لغة أن تقدم لنا شرحاً أعظم مما يعلنه هذا العمل الإلهي الفائق؟ وهو يفعل ذلك معنا نحن. حتى بعد أن نؤمن هو يعمل "معنا"، و"فينا"، وهي الأهم؛ لكي يكون لنا حياةٌ فيه.

هنا يجب أن نمتنع عن الكلام لكي نطلب الحياة.

**والحقيقة الثالثة** هي أنه هو كوَّن الكنيسة من جسده، من "عظامه ولحمه" كما يقول الرسول. وهو يفعل ذلك لكي يكون لكل الخطاة شركة، ولكي – بالشركة– نتعلم كيف يحب الرب يسوع كل واحد منا، وكيف يحب الرب كل الجماعة. حُبٌّ شخصيٌّ لكل فرد، وحُبٌّ جماعيٌّ لكل عضوٍ في جسده. لكن لا تنسى الحقيقة الكبرى: إنه يحب جسده، أي أنا وأنت.

ساد صمتٌ، ثم قال: في بداية حياتي كانت "حب قريبك كنفسك" هي بمثابة تحدٍّ كبير. لقد وُلِدنا داخل تقوى شعبية تأثرت كثيراً بالثقافة التي لا تعرف إلا المحبة من أجل العلاقات الجنسية في الأحاديث، وفي الغناء. والقريب هو من ذكره الرب في مثل "السامري الصالح"، الآخر هو يسوع نفسه؛ لأن توبيخ الذين على شمال الرب بأنهم لم يقدموا له الغذاء ولا الكساء ولم يزوروه في السجن أو اثناء المرض، واعتبر الرب أن كل هؤلاء هم شخصه. هكذا وحَّدنا به بسبب تجسده. هكذا صار الآخر هو يسوع. هل رأينا ما هو أعظم من هذا في أي دين آخر: إن الله تجسد، وصار بالتجسدِ الآخر؟

ولاحظ أن المريض والمسجون والجائع والمحروم من الطعام، ليس بالضرورة إنساناً صالحاً قديساً. صحيح أن القديسين تاهوا في مغائر وشقوق الأرض كما تقول رسالة العبرانيين، وحقاً كانوا في سلاسل الأسر مثل صموئيل المعترف، ولكن المسيح الرب، كان يكلم الإنسانية. وهي هنا –على صورة مصغرة خاصة– هي الكنيسة، وصورة كونية، هي الإنسانية كلها.

الحقيقة الخاصة بي وبك، هي أنك أنت هو الآخر بالنسبة ليسوع، ويسوع هو الآخر بالنسبة لك. هو يحبك لأنك أنت الآخر، ولأن المحبة لا تكمل إلا بالآخر، بالمحب والمحبوب، فلا محبة بدون محب ومحبوب؛ لأن الآخر ويسوع هو الآخر عندك. كلاً منكما يحمل ذات الحياة الإنسانية. حياته هي حياة إله متجسد، وحياتك أنت هي حياة إنسان دُعيَ للتألُّه.

الهجوم على شركتنا في حياة الثالوث باسم الخطية، هو هجومٌ على الإنجيل، على التجسد والصلب والقيامة والعنصرة، أي أننا نهاجم ما نحتفل به في هذه الأعياد السيدية الكبرى. نقوم بطقوس وصلوات، ونحاربها في ذات الوقت بالوعظ. هل يوجد عمى روحي أفظع من هذا؟ ساد صمتٌ وقد غلبت الدموع كلانا.

وقال: نكمِّل بعدين.

الآخر هو يسوع؛ لأن العضو في الجسد الواحد هو آخر، وهو عضوٌ في جسد يسوع. المحبة لا تُقسِّم ولكنها تميِّز، والتميز لا يسمح بالانفصال. والكثرة والتعدد هي سمات أساسية للمحبة؛ لأن المحبة تعطي، وهي تعمل بوفرة الصلاح الإلهي. وعبارة الرب نفسه لها دلالة هامة، فهو يقول: "ما فعلتموه بأحد هؤلاء فبي قد فعلتم". نحن نخطئ في تقنين المحبة حسب الشريعة. والوصايا هي الطريق، ولكن الوصية لا تختلف عن يسوع نفسه.

قاطعته، وسألته أن يشرح أكثر.

قال: "أحبوا أعدائكم" هي يسوع نفسه الذي صالحني مع الآب. فنحن "كنا أعداء في الفكر". "باركوا لاعنيكم" هي يسوع نفسه الذي يطلب لنا بركة من الآب، بركة أبدية، وهي عطية الروح القدس، وهو الذي يحسن إلى مَن يبغضه لدرجة أنه غَفَرَ لصالبيه. هو وحده الذي نظر إلى امرأة، ولم يشتهِ؛ لأنه طبيبٌ جاء لكي يعالج الإفراط في محبة الذات، وهو الوحيد الذي عاش حياةً إنسانيةً من أجل الآخرين، ومن أجل أن "يجمع أبناء الله المتفرقين إلى واحد".

وهناك وصايا عامة للجماعة، مثل تلك الخاصة بالزواج، ولكن الوصية الخاصة بالآخر هي معاملة يسوع كآخر، هي يسوع نفسه قبل أن تكون معاملتنا نحن كلٌّ للآخر، وإلا لماذا قال: "أحبوا بعضكم بعضاً كما أحببتكم أنا". وأيضاً: "بهذا يعرف الجميع أنكم تلاميذي إن كان لكم حبٌ لبعضكم البعض"، فقد جسَّد المحبة،

وهي محبة لا تعرف التمييز بين الصالح والطالح، الخيِّر والشرير. لا يوجد ازدواجية في المحبة الالهية. وهو يحب الكل معاً محبة واحدة. هذا صعبٌ علينا بسبب تراكمات نفسية واجتماعية، وسلطان العادات والقيم الاجتماعية المضادة للإنجيل. نحن ننتظر أن يأتي الذي أخطأ لكي يعتذر، ولكن الرب ليس مثلنا ينتظر عودتنا. هكذا عبَّر هو عن نفسه في مثل الدرهم المفقود. و لم يتردد الرب يسوع ان يشبِّه نفسه بامرأة، وهو الساعي وراء الخروف الضال، وهو الذي جرى لكي يتقبل الابن الضال، وهو الذي يسعى وراء كل مجروح.

وعندما قرأت عظات العلامة أوريجينوس على إنجيل لوقا، حيث ذكر أن السامري الصالح هو يسوع نفسه في المثل، وتذكَّرت أن اليهود شتموا يسوع وقالوا له: "إنه سامري وبه شيطان"، تأكدت أن المَثَل شاع في أوساط اليهود، وسبَّبَ لهم هذا الحنق.

ساد صمتٌ لبرهةٍ، وهو جالسٌ كَمَن يفكر، أو يرى شيئاً بعيداً، وقطع الصمت وقال: هل تعرف لماذا تركنا طريق محبة الخطاة؟ فقلت له: لا أعرف، ولا أريد أن أُخمِّن. فقال: لأن محبة الخطاة غير مألوفة وغير عادية، بل هي تبدو ضرباً من اللامعقول. فقد حدث أن حضرت امرأة زانية معروفة –حتى في أوساط مسيحية– القداس الأول في إحدى كنائس القاهرة، وشاهدها بعض زبائنها من الرجال، ودخلت مع السيدات لكي تتناول، وتطوع واحدٌ منهم بأن يهمس في أذن الأب الكاهن بأن يمنعها من التناول. ولكن وسط دهشة كثيرين، أعطاها الرب جسده ودمه بواسطة هذا الكاهن العظيم. ولَّما سُئل من لجنة الكنيسة، قال: إن مَن يريد أن يتقدم لديه نية، والربُّ وحده يعرف النية وغاية القلب. وتمر الأيام، وإذا بها تصبح خادمةً في الكنيسة وتترك الطريق القديم. لو كانت طُرِدَت أو مُنِعَت، ربما يكون اليأس قد حطَّم شجاعتها. نسيت أن أقول إن الأب الكاهن قال في اجتماع اللجنة: وكيف عرفتم أنها امرأة زانية؟ وسكت الكلُّ.

خصوصية محبة يسوع للخطاة، أنها محبة تسعى دائماً ولا تكف في السعي، هي حركة دائمة. وعلينا أن نكون في يقظةٍ تامةٍ لكي يكون لدينا الاستعداد لقبول هـــذه المحبة الشاذة على كل ما نعرفه، والشذوذ هنا هو أنها فوق كل مقاييس العقل والمنطق.

+ + +